

أسطورة هرقل في المغرب القديم بين الخيال والواقع

عبد العزيز بل الغايضة

ارتبطت عدد من الطوبونيميات والمواقع الأثرية بأسماء بعض الآلهة وبأبطال أسطوريين¹.

والمغرب كغيره من مقاطعات العالم الروماني لم يخرج عن هذه القاعدة إذ لم يخل من مواقع ورؤوس جبلية ظلت تحمل أسماء هذه الآلهة أو هؤلاء الأبطال الميثولوجيين. ويظهر جليا من خلال تتبع مختلف المصادر الأدبية والأثرية تردد أسماء بعض الأبطال أمثال هرقلس وهرمس ومركوريوس وأبولون وأنطيوخس وأطلس وغيرهم. إلا أننا سنركز على البطل الأسطوري والإله هرقلس نظرا لحضوره المتميز ورسوخه في متخيل سكان المغرب القديم..

لقد كتب جول توتان في بداية القرن العشرين ما يلي: "من بين أبطال الميثولوجيا الإغريقية الذين شهدت عبادتهم إقبالا كبيرا داخل الولايات الرومانية نجد الإله هرقلس"² فهل تنطبق هذه المقولة على شمال إفريقيا عامة و على المغرب القديم بصفة خاصة؟ اتفق العديد من الباحثين على مطابقة هرقل للإله ملقارت السوري، والذي انتشرت عبادته في الغرب بفعل ما عرفته هذه المدينة من تطور و رخاء إقتصادي مهمين ونظرا للدور الذي لعبه المعبد السوري في إنجاح العمليات التجارية الفينيقية³ فهو يعتبر أقدم المعابد حيث يعود بناؤه إلى 2750 ق.م. كما يؤرخ معبده في قانس بالقرن 12 ق.م. ورغم أن العديد من الأشخاص حملوا اسم الإله فليس هناك شواهد حقيقية

¹ - DEVRIES (J.), Toponymie et histoire des religions, R.H.R., CXLV, 1954, p.207-230.

² - TOUTAIN (J.), Les cultes païens dans l'empire romain, T.I., 1907, p.400.

³ - LIPINSKI (E.), Dieux et déesses de l'univers phénicien et punique, Leuven, 1995, p.234.

تدل على عبادته في قرطاج⁴ فأقدم المخلفات الأثرية التي تشهد على عبادته لا يتعدى تاريخها القرنين الرابع و الثالث ق.م.⁵

احتل هرقل مكانة مهمة في الزون الإفريقي و اعتبر من قبل ك. بوني C.BONNET " حامي و سيد المؤسسات الصورية في البحر المتوسط"⁶ كما أن الأساطير الغنية ذات العلاقة بالإله ملقارت -هرقل تجعل من إفريقيا مجالا وفضاء لانتشار المغامرات الهرقلية. إن جذور الإله عميقة في شمال إفريقيا و أسطوره حاضرة بشكل كبير من حدود رأس بون بتونس إلى حدود طنفس -ليكسوس بالمغرب.

وهناك عدد من المدن ارتبطت نشأتها بهذا البطل الأسطوري و الأمثلة متعددة سواء في إفريقيا أو في غيرها من المقاطعات الرومانية الأخرى. فحسب سيليوس إيطاليكوس (القرن الأول الميلادي) " فإن مدينة ساغونت جنوب الإيبير (Ebre) والتي كان حصارها سببا في قيام الحرب البونية الثانية- هي مؤسسة هرقلية"⁷.

ويقول المؤرخ إتيان البيزنطي الذي استمد معلوماته من Parthenios de Nicée أن نيموزوس Nimes مدينة "غالية" استمدت اسمها من نيموزوس ابن هرقلس حسب بارتينيوس⁸ كما أنه اعتبر الجد الأول للعديد من الشعوب ، فحسب بارتينيوس دائما فإن هرقل تزوج من ابنة الملك Bretannos المسماة Celtiné وأنجبا طفلا أعطوه اسم Celtos ومنه استمد الكلتيون Celtes اسمهم.

أما في شمال إفريقيا، فيبدو أن مدينة قفصة أسست من قبل هرقل ليبي حسب رواية المؤرخ سالوست⁹ ويعتقد المؤرخ أوريوس Orosius. أن لهذا الإله جذورا فينيقية¹⁰.

⁴ - Ibid., p.235.

⁵ - LEGLAY (M.), Héracles-Hercule en Afrique du nord, dans *Héracles d'une rive à l'autre de la Médit., Bilan et perspectives, Actes de la table ronde de Rome E.F. Rome, septembre, 1983, Bruxelles-Rome, 1992, p.293-294.*

⁶ - BONNET (C.), Cultes et mythes de l'Heracles tyrien en Méditerranée, *Studia Phoenica*, VIII-NamurLouvain, 1988, p.166.

⁷ - Silius Italicus, *Punica* I, 273-287

⁸ - Etienne de Byzance, p.289 Meineke = Parthenios, fr.47.

⁹ - SALLUSTE, *Jugurtha*, LXXXIX,4.

¹⁰ - PAUL OROSE, *Adversus paganos*, V,15,8.

أما المؤرخ سولينوس Solinus¹¹ فيربط نشأة مدينة إيكوسيوم (الجزائر) بعدد من رفقاء هرقل وهناك أسطورة تربط نشأة مدينة قرطبة بالبطل هرقل ذلك أن Iadés ابن هرقل هو ابن سيدة إغريقية تدعى Kerthé و منها كرطبةCirta.¹² المدينة النوميدية.

وهناك أسطورة مفادها أن مدينة أوتيكا أسست من قبل الصوريين الذين ينحدرون من ملقارت وهو أمر يعاكس الفرضيات الأخرى التي تجعل من أبولون سيد هذه المدينة انطلاقاً من بعض المعطيات منها وجود معبد للإله يعود تأسيسه إلى فترة تأسيس المدينة ووجود نتوء أبولون على بعد 25 كلم شمال شرق المدينة¹³.

وهناك من المدن من حافظت على اسم الإله من خلال الاسم الذي حملته بحيث يمكن الإشارة هنا إلى مثال مدينة Calceus Herculis (القنطرة) بنوميديا، وغير بعيد عن هذه المدينة، على بعد 12 كلم نصادف حامة هرقل (Aquae Herculis) التي يمكن مطابقتها بحمام سيدي الحاج التي اشتهرت بمياهها المعدنية. ويعتقد مرسيل لوغلاي M.Leglay أن ارتباط الحامة باسم هرقل يمكن أن يفسر ربما بقربها من القنطرة وبدويع أسطورة هرقل المتعلقة بشقه للطرق و المنافذ ذلك أنه كان وراء فتح الطريق- جنوب الأوراس- حيث توجد مدينة القنطرة، هذا المنفذ الضيق مكن من الاتصال بين مدينتي لمبيز و بسكري و على نطاق واسع بين منطقة التل و الصحراء¹⁴

وهناك من المدن من اتخذته إلها حاميا لها مثل لبيتس ماغنا حيث صور فوق نقودها¹⁵. كما عثر بالمدينة على نقائش تضيف عليه لقب جني المستوطنة أو جني المستلحة¹⁶ génie du municipe لكن أهم نقيشة هي تلك التي تحتوي على نص بونيقي يضيف عليه لقب سيد مدينة لبيتس و تحت اسم ملك عشتار إلى جانب الإلهين شدرافا (Shadrappa)

¹¹ - SOLINUS, XXV, 7.

¹² - CORBIER (P.), Hercule Africain. Divinité indigène, D.H.A., I, 1974, p.100.

¹³ - LEZINE (A.), Utique, société tunisienne de diffusion, 1970, p.37.

¹⁴ - LEGLAY (M.), Heraclès-Hercule, *op.cit.*, p.295.

¹⁵ - MULLER, *Numismatique de l'Afrique ancienne II*, Copenhague, 1862, p.3 n°1 à 16.

¹⁶ - IRT, 280-284 ; IRT, 266.

ولبير باطير¹⁷ (Liber Pater) ويعتقد لوبولي (LEPELLEY) أن هناك نوعا من المبالغة في إضفاء مثل هذه الصفة على إله كهرقل حيث شخصيته تتجاوز بكثير حدود هذه الجماعة البشرية¹⁸.

ومن المدن الأخرى التي طلبت حمايته نجد مدينة شواش (Sua) جنوب غرب قرطاج حيث عثر على مذبح مقدم لهرقل الحامي للمدينة " جنيوس المدينة"¹⁹. وإلى الجنوب من هذه المدينة تقدم المجلس المحلي لمستوطنة سوفيس (Sufes) باهداء إلى كاهن امبراطوري بمناسبة ترقيته وقد عبر عن أريحيته يوم 21 أكتوبر الذي يتزامن مع الاحتفال بعيد ميلاد الإله هرقل حامي الأجداد (Genius Patriae)²⁰ وهذا النعت ربما يعبر عن مظهره المحلي أي الإفريقي.

ويمكن أن نسجل كذلك ارتباط قبيلة النوميديين بهرقل كما تبين ذلك نقشة توبورسيكو نوميداروم شرق الجزائر، والتي تصفي عليه لقب جنيوس²¹، ونفس الصفة حملها أيضا فوق نقشة عثر عليها في هيبون (Hippo) حيث حمل لقب حامي قبيلة السابورانسيين النوميديية (Saburanienses)²².

إن ما يستشف من هذه المعطيات هو أن المدن ذات التقاليد الفينيقية البونية التي أضفت على الإله لقب جنيوس أو إله الأسلاف استمرت في تخصيص عبادة لهرقل حتى بعد اندماجها في العالم الإغريقي-الروماني.²³

إذن كيف يمكن أن نفسر حضور اسم هرقل في المواقع الإفريقية ؟
إن هذا الانتشار ربما راجع لتأثير الإله البونيقي لمقارت و بالتالي يختفي سيد صور

¹⁷ - DIVITA (A.), Shadrapha e Milkashtart dii patrii de Leptis Magna e I templi del lato nord-ouest del Foro vecchio Leptitano, *Orientalia*, n.s.37, 1968, p.201-211.

¹⁸ - LEPELLEY, Une forme religieuse du patriotisme municipal : le culte du génie de la cité dans l'Afrique romaine, *Actes du 1^{ère} colloque sur l'histoire et l'archéologie de l'Afrique du nord*, Avignon 1990, p.125-136.

¹⁹ - C.I.L.VIII, 14808.

²⁰ - C.I.L.VIII, 262.

²¹ - I.L.Alg I, 1227.

²² - A.E.1975, 886; P.Corbier, Hercule Africain...*Op.cit.*, p.95-101.

²³ - LEGLAY (M.), Heraclès-Hercule...*Op.cit.*, p.298.

وراء اسم هرقل الإغريقي الروماني ، فهو حامي التجار الفينيقيين باعتبارهم أول شعب أقام مراكز تجارية على طول الساحل المتوسطي مثل قادس وليكسوس .

فهل لهرقل نفس الحضور في المغرب القديم؟

يبدو أن فقر المغرب واضح فيما يخص النقائش المتعلقة بالعبادة الهرقلية فلم يعثر لحد الآن على أي إهداء لهذا الإله في حين يبدو أن له ارتباط وثيق بمتلوجيا المغرب القديم ، كما ارتبط اسمه بشكل كبير بالأعمدة، والتي تدل على جبلي أبيلا (جبل آشو) شمال المغرب و كالبي بإسبانيا، فحسب الأسطورة ان الجبلين كانا في الأصل جبلا واحدا ففرق هرقل بينهما ليصل البحر المتوسط بالأطلنطي و نفس الفكرة نجدها عند المؤرخ سينيك (Senéque) ²⁴ و بومبونيوس ميلا ²⁵ فهما يشيران الى أن هرقل فصل بين الجبلين و بزوال الحاجز فتح المجال أمام المحيط ليطلق عنانه ²⁶ و قد ورد ذكر الأعمدة عند عدد من الكتاب القدماء ، فالمؤرخ هيرودوت يتحدث عن الأعمدة عند حديثه عن بلد يمتد بليبيا ²⁷ في حين يشير إليها المؤرخ هيكاتي الميلي (Hecatée de Milet) عند توطينه لمدينة Trinké بالقرب منها . وفي النص الأصلي لرحلة حانون ورد اسم أعمدة هرقل باعتباره المكان الذي حددته قرطاج لانطلاق الرحلة صوب السواحل المغربية الموجودة مباشرة بعد اجتياز هذه الأعمدة وهذا يعني أن هذا الموقع كان معروفا من قبل الفينيقيين في السابق لأن أسطورة هرقل في أقصى الغرب ما هي في الواقع سوى تجسيد لمقارن إله صور الذي يرمز إلى الأسفار الفينيقية البحرية نحو المحيط. ²⁸

أما رحلة سيلاكس فتتحدث عن عمود أبيلا الذي يشكل العمود الليبي في حين أن سطرابون ²⁹ يشير إلى العمودين معا و نفس الإشارة نجدها عند فيستوس أفينوس FestusAvienus خلال القرن IV-Vم أما في الكتاب السابع عشر فيتحدث سطرابون عن

²⁴ - Senéque, Hercule furieux, p.237-238.

²⁵ - Pomponius Mela, De chorographia, I,5.

²⁶ - PAULIAN (A.), Paysages océaniques dans la littérature latine, *Caesarodunum*, 13, 1978, p.27.

²⁷ - Herodote, IV.43; IV, 199.

²⁸ - رضوان العزيفي، "الفينيقيون في الساحل الأطلنطي من خلال رحلة حانون"، المصباحية، العدد 4، 2000، ص.8.

²⁹ - STRABON, Géographie III, 170.

الأعمدة عند ذكره لمدينتي ليكسوس وقادس.

يبدو إذن أن الأعمدة شكلت نقطة استدلال بالنسبة للقسم الغربي من بلاد المغرب، فالمؤرخون القدماء كانوا يوطنون هذه المنطقة جغرافيا انطلاقا من الأعمدة.

أما علاقة هرقل بالأسطورة المغربية فتظهر من خلال إشارة بومبنيوس ميلا خلال القرن الأول الميلادي أثناء حديثه عن مغارة هرقل . يقول " عند رأس أمبولوسيا (رأس سبارطيل حاليا) توجد مغارة مكرسة لهرقل و ما وراء هذه المغارة، مدينة طنجة ، مدينة قديمة أسست حسب ما يقال من قبل أنطيوخس³⁰ (Antaeus) فهذه المغارة توجد عند قمة هذا الرأس أو على الساحل بين الرأس و طنجة و لا يمكن مطابقتها بمغارة هرقل التي توجد على الساحل الأطلسي على بعد 54 كلم جنوب رأس سبارطيل و بالتالي يجب البحث عن هذه المغارة في اتجاه آخر.³¹

وكيفما كانت طبيعة هرقل في هذه المدينة وطبيعة العلاقة التي تربطه بهذه المغارة فليس هناك ما يمنع من إضفاء طابع القداسة عليها والتي تعود ربما لفترات سابقة لعبادة هرقل-ملقارت.³²

ويشير المؤرخ بلوتارخوس في حديثه عن سيرة سرطوريوس³³ إلى أن " أنطيوخس ابن بوصيدون و الأرض مات مخنوقا من قبل هرقل و بعد وفاته أنجبت زوجته Tinga من هذا الأخير ولدا سمي صوفاكس (Sophax) و هو الذي بنى مدينة طنجة و أعطاه اسم أمه". ويزعم كل من يوبا الأول و الثاني أنهما ينحدران منه وقد عثر على عدد من النقود تحمل صورا لهذا الأخير، و في ظهرها مثلت بعض رموز الإله مثل الهراوة وسط تاج من الرند، ونفس الأمر ينطبق على نقود ابنه بطليموس. وتبقى مدينة ليكسوس من المدن التي احتفظت بالعديد من المشاهد الأسطورية و المخلفات الأثرية المرتبطة بالعبادة الهرقلية.

³⁰ - POMPONIIUS MELA, De chorographia, I, 5.

³¹ -REBUFFAT (R.), Bronzes antiques d'hercule à Tanger et à Arzila dans, *Ant.afr.*, 5, 1971, p.188.

³² - DECRET (F.) - Fantar (M.H), *L'Afrique du nord dans l'Antiquité des origines au V^{ème} siècle*, Payot, Paris, 1981, p.269.

³³ - PLUTARQUE, Sertorius, 9,4-5.

أشار بلينيوس الشيخ³⁴ خلال القرن الاول الميلادي إلى أن عبادة هرقل ملقارت تأسست في ليكسوس منذ القرن XII ق.م. يدل على ذلك وجود معبد بها (DelubrumHerculis). يقول "على ساحل المحيط يوجد معبد هرقل و هو أقدم من معبد نفس الإله الموجود في قادس" إذن فمنذ بدايتها وضعت المدينة تحت حماية إله الأسلاف ملقارت المطابق للإله هرقل³⁵.

إن هذه الإشارة جعلت من ليكسوس أقدم المستوطنات الفينيقية في الغرب المتوسطي ولم يتم الكشف بعد عن هذا المعبد مثله في ذلك مثل المباني الفينيقية في ليكسوس.

وانطلاقا من الإشارات الواردة في النصوص ينبغي البحث عنه خارج المجال الحضري كما هو الشأن بالنسبة لمعبد قادس.³⁶

ويتحدث بلينيوس في الكتاب الخامس من التاريخ الطبيعي عن وجود مذبح للإله هرقل بهذه المدينة. يقول "تكتنف المصب جزيرة رغم عزلتها وانخفاضها بالنسبة للمناطق المجاورة لها، فإنها لا تغمرها المياه. وقد أقيم فوقها مذبح لهرقل، أما حدائق الهسبيريد الشهيرة، فلم يبق منها سوى بعض أشجار الزيتون البري"³⁷ وهذه الإشارة يؤكد لها الجغرافي سترابون³⁸.

إن هذا المذبح هو ربما نفسه الذي مثل فوق إحدى الميداليات التي تعود للمدينة المستقلة، مما يدل على وجود عبادة "وطنية" كما أسلفنا الذكر.

خلال القرن الثاني الميلادي نجد إشارة عند الجغرافي بطليموس تتعلق برأس هرقلس (Cap Heraclés) والذي يوجد على خط طول 7°-30' وخط عرض 30' وهو بالتالي يوجد بين مصب نهر فتوت (Phtout تانسيفت) و تموسيك (وكادور؟) وقد تمت مطابقة

³⁴ - PLINE, H.N., XIX, 63.

³⁵ -JODIN (A), Volubilis Regia Iubae, contribution à l'étude des civilisations du Maroc antique pré-claudien, Paris, 1987, p.217.

³⁶ - HABIBI (M.), A propos du temple H et du temple de Melqart-Heraclés à Lixus, *Africa Romana, Atti del X° convegno di studio Oristano*, Dicembre, 1992, p.239.

³⁷ -PLINE, H.N., V, 3.

³⁸ - STRABON, *Géographie*, XVII, 3,3.

رأس هرقل منذ فترة بعيدة برأس الحديد مباشرة شمال موكادور وهذه المطابقة أخذ بها كل من فيفيان دو سان مارتان و تبعه توفنو فيما بعد.

إن هذا الشناخ الذي تحدث عنه بطليموس يدفعنا للحديث عن شناخ آخر يوجد بالساحل الرملي لإفني، وهو رأس نون و الذي أشار إليه أحد التجار البرتغاليين خلال القرن السادس عشر وهو فلانتان فرنانديس (Valentin Fernandes).

يقول هذا الأخير " إن هرقل عند وصوله إلى رأس نون وجد تيارات قوية منعته من متابعة السير ثم أقام عمودا كتب عليه بالإغريقية ما يلي " كل من اجتاز هذا الشناخ قد يعود أو لا يعود و لهذا سمي هذا الرأس برأس نون"³⁹.

وإذا كانت النصوص تحمل إشارات حول هذه الأسطورة الهرقلية و حول أدوات العبادة فهل خلفت بصمات على المستوى الأثري؟

إن المخلفات الأثرية المتعلقة بعبادة هرقل في المغرب القديم قام بإحصائها روبيفا R.Rebuffat⁴⁰ و قدم نماذج منها و تتعلق أساسا بالتماثيل التي عثر عليها بعدة مواقع مثل طنجة و سبتة، وزليل و ليكسوس، و بناصا و تموسيدة و ويلي(انظر اللوحة) و سلا. و يبقى المعبد و المذبح مجهولين لحد الآن و لم يتم الكشف عنهما و بالمقابل تبقى مدينتا ليكسوس و طنجة محط نزاع حول أحقية احتضان الصراع الذي دار بين البطليين هرقل و أنطيوخس.

فحسب المؤرخ بلوتارخوس، أن مدينة طنجة هي التي احتضن ترابها الصراع بين هرقل و أنطيوخس في حين يحدد سترابون⁴¹ قبر العملاق أنطيوخس في ليكسوس كما أن بلينيوس حدد مكان الصراع في هذه المدينة⁴² و بها أيضا موقع حدائق الهسبيريد الغناء التي كانت مطمح هرقل إذ جاء إليها بحثا عن التفاحات الذهبية لكنه اصطدم بالعملاق أنطيوخس.

³⁹ - REBUFFAT (R.), Bronzes antiques, *Op.cit*, p.188.

⁴⁰ - *Ibid.*, p.179-191.

⁴¹ - STRABON, *Géographie*, XVII, 3,8.

⁴² - Pline, *H.N.*, V,3.

ومعلوم أن جذور هذه الخرافة نمت في البداية في قورينة (ليبيا الحالية)⁴³ لتزدهر بعد ذلك في ليكسوس على شاطئ المحيط و إن كان البعض يحاول أن يوطن هذه الحقائق شمال أوروبا عوض الساحل الإفريقي.

وقد عثر على تمثالين من البرونز يصوران مشهد الصراع بين العملاقين في كل من بناسا وليكسوس (انظر اللوحة) و هناك أيضا بيضاويتان من فسيفساء أعمال هرقل بالمنزل المعروف تحت نفس الاسم بوليلي، تبين إحداها صراع هرقل و أنطيسوس و تشير الثانية وهي في حالة رديئة لذكرى حقائق الهسبيريدس.⁴⁴

يبدو انطلاقا من الشواهد المكتوبة والمخلفات الأثرية أنه كان للبطل و الإله هرقل حضور في المغرب القديم وخاصة في مدن الساحل حيث يبدو التأثير الفينيقي حاضرا من خلال عبادة ملقارت الصوري و هناك استمرارية تداول بعض الأساطير المرتبطة به مثل أسطورة مغارة هرقل قرب طنجة، التي ظلت حاضرة في مخيلة الإنسان المغربي، كرمز للقوة الخارقة سواء القوة الجسدية أو المعنوية (الأخلاقية) و ذلك في خدمة الحق والقانون.

إذن هذه إحاطة بالأسطورة من خلال نموذج محدد هو نموذج البطل هرقل و يمكن تعميم هذه المنهجية على آلهة أخرى مثل الإله مركوريوس الذي يتردد اسمه على الأقل في مواقع مثل أدميركوري Ad. Mercuri⁴⁵ و أدميركوريوس Ad. Mercurius (خدس، جنوب سلا)⁴⁶ و رأس هرمس (رأس الأقواس) cap Hermès أو مثال الإله أبولون الذي ارتبط اسمه في جغرافية المغرب برأس فوبيوس (Phoebus) الوارد ذكره عند الجغرافي بطليموس كما يمكن تعميم هذا المنهج على مجال جغرافي واسع هو شمال إفريقيا.

عبد العزيز بل الفايذة

كلية الآداب. القنيطرة

⁴³ - Ibid., V,3, p.359-361.

⁴⁴ - بلفايدة عبد العزيز، بلكامل البيضاوية، "أنطيسوس" معلمة المغرب، عدد3، ص.848.

THOUVENOT (R.), La maison aux travaux d'Hercule, P.S.A.M., VIII, 1948, p.69-108.

⁴⁵ - M.Lenoir, Ad.Mercuri templum, voies et occupation antique du nord du Maroc, M. D.A.I.R., 100, 1993, p.507-520.

⁴⁶ - A.Akerraz, Exploratio Ad. Mercurios, B.A.M, XIX, 2002, p.196.